

قراءة في تاريخ الأوبئة

Read in history of epidemics

مبارك فضيلة
جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر
FADHILA.MEBAREK@univ-tiaret.dz

تاريخ القبول: 2022./05./16

تاريخ الاستلام: 2022./03./02

الملخص:

منذ ان وجد الإنسان في هذا الكون وهو يناضل لكشف الحقائق المختلفة كالمرض والموت والأوبئة، فحاول التصدي لها كمرض الطاعون والملاريا وغيرها، فطور دراساته خصوصاً مع التطور التكنولوجي، ولالأوبئة تاريخ ارتبط بالطب الإبراهيمي الذي يمثل أنموذجاً يحتذى به في الفترة المعاصرة مؤصلاً لذلك بعلم قائم بذاته يعرف الطب العملي الذي يحاول معرفة اسباب العدوى وكيفية الوقاية منها، لهذا يهتم الطب الوقائي بمختلف الأمراض المعدية والفيروسات التي عرفها الإنسان منذ القدم إلى يومنا هذا، وأهم هذه الفيروسات فيروس كوفيد 19 الذي ينتمي إلى الفيروسات التاجية التي تعرف بتحولاتها الجينية وسرعة انتشارها والذي يساهم فيه عدة معطيات، وهناك اجراءات وقائية التي تقلل منه حين اكتشاف اللقاح وتطويره ومدى قابلية مناعة القطيع له، وتفادي الاعراض الجانبية له وبالتالي القضاء عليه وفق بروتوكول صحي ناجح تتشارك فيه كل الدول من اجل انقاذ البشرية.

كلمات مفتاحية: فيروس، كورونا، الجينات، مناعة القطيع، الأوبئة.

Abstract: (Do not exceed 10 lines/ 200 word as a maximum) (Time New Roman14)

Since man existed in the universe, he fighting has been to uncover various facts such as disease, death and epidemics, he tried to address them like plague disease, malaria, and others. so, he developed his studies, especially with technological development. Epidemics have a history associated with the medicine of the patriarchate, which represents a model to be emulated in the contemporary period, which is a precursor that standalone science known as practical medicine that tries to know the causes of infection and how to prevent it, For this reason, preventive medicine is concerned with the various infectious diseases and viruses that humans have known from ancient times to the present day, and the most important of these viruses is the Covid-19 virus that belongs to corona viruses that are known by their genetic transformations and the speed of their spread, there are preventive measures that reduce it until its vaccine discovery and the extent to which the herd is immune. To avoid its side effects and ultimately eliminating it according to a successful health protocol in which all countries participate in order to save humanity

Keywords: corona, virus, genes, herd immunity, epidemics

1. مقدمة:

لقد شغل موضوع العناية بالموت والمرض أهمية قصوى منذ الاغريق القدماء، بل حتى في الديانات الشرقية القديمة وقد تجل هذا الاهتمام في مستويات متعددة كالمجال المعرفي والفلسفي والاسطوري، ومازال حتى اللحظة يشكل هاجسا معرفيا من طرف العلماء والباحثين والمفكرين خصوصا ما تعلق بالشفاء وعلاقة الداء بالدواء، لكونهما يمثلان لغزا من ألغاز الكون في اطار فلسفة المعرفة، وفي بعدها النقدي اهتمت فلسفة العلوم بالطابع التساؤلي : كيف ارسى الفلسفة الطابع العلمي للأوبئة، وكيف عاجلت إشكالية الموت؟ وهل تاريخ الأمراض وليد الفترة المعاصرة فقط؟

2. كرونولوجيا الباثولوجيا ونوزولوجيا :

إن المتتبع لمسار تولد الأمراض من الناحية التاريخية يلاحظ ثمة اهتمام كبير بها من طرف القدماء، بيد ان هذه النظرة يغلب عليها الطابع الاسطوري والغبي حيث تفسر الأمراض تفسيراً لاهوتيا يعزى كل أسباب المرض وخطورته إلى غضب الرب، فتاريخ العلوم ينسب هذا إلى تطور عقيدتي محض أو إلى ممارسة السحر والشعوذة، إذ يأخذ التفسير الأسطوري حظه الأكبر في ذلك، وهذا ما أشار إليه مؤرخو تاريخ العلم: «وبعد ان أصاب الطاعون جنيف ارسل كالفن (CALVIN) إلى المحرقة اربعة عشرة مسكينا بتهمة اثارة الطاعون بفضل تعزيماتهم .وقامت الجحيم وانتصبت مع الجن والشياطين الذي يحرضون الناس على المعصية» (رنيه تاتون، 1993، 163)

إذا أردنا ان نكون أكثر دقة فإن مختلف الأمراض ارتبطت بالمعصية والخطيئة، فهي عقاب من السماء نظرا لفساد البشر وطغيانهم في الأرض، وهو بمثابة العقاب، وبعيدا عن التفسير العقلاني في العلم فان الشفاء والعلاج هو بيد الرب، وأن الابتعاد عن الخطيئة هو الذي يبعد الشر والمرض والموت في الأرض. أما عن تاريخية الأوبئة فان تاريخ العلم أثبت وجود أوبئة مختلفة كالحُمى النمشية والحُمى القرمزية والطاعون والجذام وغيرها خصوصا في القرن 15 م، فبعض الأمراض عرفت هويتها وتم اكتشاف علاجها وبعضها بقيت مجهولة النسب، ونذكر منها كيفية التطبيب والوسيلة المتبعة في ذلك، خصوصا مع انفصال العلوم عن الفلسفة وظهور المنهج التجريبي مع فرنسيس بيكون وكتابه الشهير الاورغانون الجديد، وظهور كتاب مقال في المنهج مع رنيه ديكارت كلها عوامل ساهمت في تطور الصحة والعلاج وتصنيف الأمراض أو ما يعرف في لغة الطب بنوزولوجيا: «الصحة كانت المعالجة الوقائية تلجأ إلى وسائل عملية تجريبية : العزل الاربعيني (الكرنيتينا) العزل في محجر صحي، هرب امام المصيبة وقد اثبت العزل جدواه تجاه بعض الأمراض الوبائية مثل الجذام فقد قل عدد المجذوميين بعد اضطهادهم وحبسهم، وهرب الناس امام ثيابهم وصناعتهم» (رنيه تاتون، 1993، 170)

إن اتباع نظام الحجر الصحي والالتزام به اتجاه الأوبئة عادة قديمة عرفها الإنسان لحماية نفسه وغيره من الأمراض، أما وباء الطاعون فإنهم لم يكتفوا بالعزل والحجر وإنما خير وقاية منه هي الهرب : «ولكن ماهي الحيلة اتجاه أمراض وبائية مثل الطاعون إلا التمسك تجاهه بالمثل القديم المسرع في الهرب ينجو...؟» (رنيه تاتون، 1993، 170)

إن الطب الحديث والمعاصر يعتمد على الأبحاث المتواصلة وتطوير اللقاحات والأمصال وهو ما يعرف بالطب العملي الذي يمتد بجذوره إلى الطبيب اليوناني الشهير أبوقراط، فدرسوا امراض كثيرة واكتشفوا لها الدواء : «ومن بين الأمراض العديدة التي درست نذكر الالتهاب الغرغرين (خاصة في إنجلترا) وداء النقطة والتهاب الصدر، والمغص من اي نوع، وفقر الدم وانتفاخ الجلد والأمراض الزهرية وامراض النساء والحصاف (برص ايطالي) وغيرها الكثير من أمراض الجلد واقرن كل منها بأسماء مؤلفين ... » (رنيه تاتون، 1993، 685)

بعد تصنيف الأمراض وما عرفته من تطور تم التأصيل لعلم جديد يعرف بالسيمولوجيا التي ظهرت في قرن 18 أو ما يعرف بدلالات الأعراف، والتي ترتبط ارتباطا مباشرا بعلم الأوبئة (الباثولوجيا) بهدف التشخيص والعلاج، فلقد احتل علم الأوبئة مكانة هامة

في حقل الدراسات الباثولوجية كونه يرتبط بالعدوى السريعة، فكانت الطهارة أكبر وسيلة لذلك خصوصا للوقاية من الطاعون الذي هز أوروبا، ولقد تصدى لذلك علماء كثر مثلما يحدث حاليا مع فيروس كورونا (كوفيد 19)، فنحن في القرن الواحد والعشرون ومع التطور الهائل للتكنولوجيا أعيد طرح مسألة الطهارة، ونقصد بالطهارة طهارة البدن والجسد وليست الطهارة الروحية، في حين أن الدين الإسلامي أكد على الطهارتين معا طهارة القلب والجسد فكان ضروري لقتل الفيروسات والجراثيم والبكتيريا الضارة التي تساهم في نقل العدوى بسرعة البرق فلقد عرفت أوروبا: « تطهير الجو بنيران كبيرة، أشخاص متخصصون يتولون شؤون الصحة (الغربان) حمالون واطباء وجراحون ضد الطاعون ، مزودون بثياب مشمعة وأقنعة (MASQUES) ذات أنوف طويلة محشية بالعطور، تظل الكارثة تأخذ طريقها حتى انطفائه الفجائي، وكيف تمكن إقامة حواجز فعالة بوجه أسباب مجهولة.. » (رنيه تاتون، 1993، 170)

واجه الإنسان وباء الطاعون بالتطهير بالنار في الجو وارتداء الأقنعة الواقية في ذلك، ولكنه لم يتوصل إلى لقاح إلا أن يتلاشى ويختفي المرض لوحده، فقد حصد الطاعون الكثير من الأرواح، فهو ينتمي إلى فصيلة الأمراض المعدية الخطيرة والقاتلة التي تحظى بأبحاث متخصصة، ولعل فيروس كوفيد 19 شبيه به وهو في انتظار المصل المضاد لذلك : «وظل الطاعون يحصد حصدا رهيبا، خاصة في مرسيليا سنة 1720 دون إمكانية اكتشاف سببه رغم الملاحظات المنقعة لانطوان ديديه (antoine deidier) من قبل ج.م لانسيزي 1654، 1720» (G.M. lancisi) (رنيه تاتون، 1993، 685)

إن الصراع مع الأوبئة جعل العلماء يبذلون جهدهم في ابتكار العلاج، وهذا طبعا يتوقف على تطور العلم ودور فلسفة العلوم في ذلك، كما ان الوقوع في الخطأ وارد والشك في الحقائق وتعليق الحكم واجب: « ولهذا السبب لجأ ديكارت بعد ان أنهى دروسه المدرسية إلى إعادة البحث في كل شيء، وقد دحض كل ما تقبله في السابق، حتى يضعه في مستوى عقله لهذا يمكننا اعتبار الشك الديكارتي كنقطة انطلاق للفلسفة الحديثة » (رينيه مونيه، 1966، 13)

يتعلق الأمر هنا بقدرة العلم على التعامل مع الأوبئة الطارئة والعمل على تعزيز مناعة القطيع : « ذلك ما يبدو انه وجه العلم الحقيقي فالعلم يجب الا يعجز فهو في تطور دائم، وتحول دائم ، في بحثه عن الحقيقة، وهذا لما ينته ولن ينتهي أبدا. لهذا فان الأخطاء نفسها ليست عديمة الفائدة، لأنها تمهد أحيانا لإيجاد الطريق القويم الذي يجب اتباعه » (رينيه مونيه، 1966، 44)

هذا يجلينا إلى إدراك قصور العلم، فهو دائم التطور عبر الأبحاث المتواصلة، فقد يصيب وقد يفشل فهذه هي الطبيعة الإنسانية، وهذا ما أشار اليه كلود برنار في مقدمة درس الطب التجريبي: « إن الرجال العظام يمكن أن نشبههم بالمشاعل التي تلمع من بعيد لبعيد حتى تقود سير العلم... وقد شبه الرجال العظام بعمالقة على اكتافهم اقزام يرون ابعده منهم» (رينيه مونيه، 1966، 44)

نؤكد على نسبة العلم ومدى تطور الدراسات الاستيمولوجية، فاليقين العلمي غير مضمون في مجال علم الأمراض والأوبئة، وهذا ما فعله فيروس كورونا الذي هز فكرة اليقين العلمي، فقد عمل على تقويض الحقيقة، ولكن هذا لا يعني أن تاريخ العلم لم يهتم لمسار تطور علم الأوبئة: «ودرست الملاريا وجربت بفعالية في ايطاليا من قبل ج.م لا نسيزي (G.M lancisi) ، أما الدفتيريا التي كانت تحصد الناس في انجلترا وفي كل مكان من أوروبا، والتيفوس والتفؤيد والكلب والكريب المشهور بالأنفلونزا والسعال الديكي وقد درست كلها أيضا... » (رنيه تاتون، 1993، 685-686)

الاهتمام بالباثولوجيا والعمل على تطويرها هي هاجس فعلي لدى الاطباء والباحثين المختصين في ذلك، فهناك أوبئة جديدة ظهرت والتعامل معها بجدية كالزونا (zeona) والجذري: «وهناك وباء جديد تعددت ضحاياه هو الهواء الأصفر الذي ظهر في اسبانيا أولا ثم خارجها ثانيا. ولكن الجذري هو الذي خضع لدراسات عدة أعطت نتائج مشهودة » (رنيه تاتون، 1993، 686)

من شروط الروح العلمية التحلي بالموضوعية وتفسير الظواهر العلمية تفسيراً وضعياً وتجريبياً، وهناك نماذج كثيرة في مجال علم الأوبئة العقلاني نذكر مثلاً الطبيب والشاعر الفلكي الضليع في مجال علم الأوبئة العقلاني جيرولا موفراكسا تور GIROLamo.Fracas: «فهو لم يدرس فقط التيفوس والطاعون والسفلس بشكل تخصصي ممكن يومئذ بل فحص فضلاً عوامل العدوى بملامسة الأشخاص أو الأشياء الموبوءة جراثيم الأمراض المتنقلة بالعدوى البعيدة وهو بهذا سبق في وعيه نظريات باستور» (رنيه تاتون، 1993، 170)

عموماً يمكننا القول مما سبق أن علم الأوبئة قطع أشواطاً كبيرة في مجال الدراسات الخاصة بقسم الأمراض المعدية، والتي عرفت تطوراً كبيراً من خلال ما وصلت إليه من نتائج، فهو ليس محصوراً بمرحلة معينة وإنما عرف تطوراً كبيراً منذ اليونان كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، غير أن تفسير الأوبئة كان لا يخرج عن دائرة الأسطورة: «فأنزلت الآلهة بأهالي المدينة وباء الطاعون الكاسح الذي كاد يفنيهم... ويتوسلون كي ينقذهم من شر هذا الوباء كما أنقذ المدينة سابقاً» (إبراهيم يوسف النجار، 2013، 29)

ويستفاد من كل هذا أن علم الأوبئة تخصص يهتم بمختلف الأمراض المعدية التي عرفت البشرية منذ القدم، وسيظل العلم الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذا الإنسان الذي حاد عن هدفه الأصلي وطور فيروسات ضرت به وبالكرة الأرضية، والأمر هنا يحتاج إلى تحالف معرفي نقدي بين العلم والفلسفة لإنتاج أفكار جديدة وعلوم تخدم الإنسان وتنقذه من خطر الأوبئة، وهذا يتحقق بعودة الإنسان إلى ذاته ووضع أطر أخلاقية لذلك.

3. الوجه الجديد للاستعمار بين الأوبئة والتقنية :

إن المفهوم التقليدي للاستعمار أصبح مفهوماً ضيقاً وأكثر وضوحاً، عندما كانت الدول القوية تتخذ من القوة والسلاح وسيلة للاستعمار والسيطرة، خصوصاً بعد تطور التقنية والحروب البيولوجية. ظهر نوع من الاستعمار أكثر ذكاءً وحنكة، عندما حاد العلم عن أخلاقيات الحقيقة وابتعد الإنسان عن قيمه حيث اتخذ من الأوبئة وسيلة للاستعمار الجديد وتدمير الآخر المستضعف، إنه الوجه الجديد للإمبريالية حيث يرى: «مؤرخو الطب الحديث يرون أن الطب نفسه كان وسيلة رئيسة لنقل الأفكار الإمبريالية وتطبيقاتها» (شلدون واتس، 2010، 07)

إن حتمية تغيير وجه الاستعمار فرضته الأنظمة الاقتصادية ومصالحها، وانتهاج سياسة براغماتية هدفها إخضاع العالم الثالث لسيطرته، فكان عليه أن يغير منهجه في ممارسة سياسته، وذلك عن طريق الفكر بظهور علم الاستشراق بحجة دراسة الشرق والتعرف عليه انترولوجياً وانتوغرافياً في جميع المجالات، وتوظيف علم الانترولوجيا في علم الطب وعلم الأوبئة فعملوا على صنع وتطوير فيروسات ونشرها في بعض الدول الأفريقية مثل فيروس إيبولا وغيرها من الفيروسات: «وفي هذا السياق فإن الأفكار والمؤسسات التي أنشأها الغرب بغرض مقاومة الأمراض الوبائية، ماهي إلا علاقات عن القوة والسيطرة بين الحاكمين والمحكومين.» (شلدون واتس، 2010، 07)

سعت الإمبريالية بكل الطرق الأيديولوجية والعلمية لبسط نفوذها باسم ما يعرف بالطب الإمبريالي الذي نشط كثيراً في الدول الأفريقية، فمررت أفكارها وفلسفتها وأوهمت الشعوب المستضعفة بأنها تقاوم المرض وتحرس على عدم انتشاره، لهذا اتخذت من علم الأوبئة ذريعة لذلك فقامت: «بدراسة الحالات الجماعية للعدوى أي بالعدوى الجماعية وليست بالحالات الفردية للمرض فالأمراض الوبائية هي في الأصل أمراض معدية تصيب الأعداد الكبيرة من البشر، وبذلك فليست كل الأمراض المعدية وبائية» (شلدون واتس، 2010، 07) تعتبر الدول المتقدمة الدول الأفريقية حقل تجارب وفضاء لممارسة الداء والدواء، بمعنى أنها تجرب اللقاح عليهم كما أنها تعمل على نشره لتحقيق مآربها.

4. كيفية انتقال الأمراض المعدية بين البشر :

عانى الإنسان من شبح الأمراض المعدية القاتلة والخطيرة بطرق مختلفة، أحيانا تكون له يد فيها وأحيانا تكون خارجة عن نطاقه، كالهواء الذي كان له دور فعال في نشر العدوى بين الناس: « عن طريق الهواء كما هي حالة إصابات الجهاز التنفسي حيث العدوى عن طريق الرذاذ المتطاير كالسسل والانفلونزا » (شلدون واتس، 2010، 08)

وباعتبار الإنسان كائن مدني بطبعه فهذه المدنية ساهمت في نشر العدوى عن طريق التقارب الاجتماعي، وهو عكس التباعد الاجتماعي الذي يقلل من نشر العدوى إذ ساهم: « الاتصال المباشر كما في حالة الأمراض الجلدية كالجرب، أو في حالة الجماع كالزهري » (شلدون واتس، 2010، 08)

ويمكننا القول هنا أن العدوى تنشط عن طريق الجنس مثلما هو الحال في مرض الزهري والايديز: « عن طريق المشيمة أثناء الحمل كما في حالة فيروس الايدز، و عن طريق العوائل الناقلة مثل الطاعون الذي ينتقل عن طريق البراغيث والحمى الصفراء والملاريا ومرض الفيل التي تنتقل عن طريق البعوض. » (شلدون واتس، 2010، 08)

تمثل الدول الافريقية بؤرة لانتشار الأوبئة على نطاق واسع، مما أدى إلى حدوث وفيات كبيرة، وذلك اما عن طريق التبادلات التجارية أو الغزو الاستعماري أو الدخول بحجة القضاء على الأوبئة تحت اسم الطب الامبريالي.

وفي إطار طرق نقل العدوى هناك دائما طريقة سهلة وأكثر انتشارا وهي التلوث، خصوصا الطعام: «عن طريق الجهاز الهضمي بتناول الطعام والشراب الملوث كما في حالة الكوليرا والدوسنتاريا الاميبية » (شلدون واتس، 2010، 08-09) ومثلما هناك طرق للعدوى، هناك طرق للوقاية من هذه الأوبئة فهناك شبه إجماع عليها في كونها تحمي الإنسان وتقضي ولو نسبيا في انتشار العدوى ويمكننا حصرها في ما يلي :

5. الاجراءات الوقائية للحد من انتشار الأوبئة:

« تحديد انتقال البشر باستخدام الحجر الصحي، دفن اجباري للموتى بالطاعون في حفر خاصة وتغطيتها بالجير الحي والتخلص من متعلقاتهم الشخصية، عزل المريض في مستشفيات الأمراض المعدية، تقديم المعونة لهؤلاء الذين تضررت حياتهم من الوباء » (شلدون واتس، 2010، 24)

هذه هي طرق الوقاية من مختلف الأوبئة، وأهم اجراء وقائي يعول عليه في تجنب العدوى وتطويق الفيروس هو الحجر الصحي، بحيث يتم عزل المصاب لمدة 14 يوما حتى يتمكن من الشفاء لقد ارهقت الأوبئة المعدية كاهل الإنسان قديما وحديثا، وهذا يؤكد محدودية العلم وما العجز الذي يشهده العالم حيال فيروس كوفيد 19 خير دليل على ذلك، خصوصا وأن هذا الفيروس يعرف تطور في جيناته، والأممر هنا متوقف على ابتكار اللقاح، وهنا تطرح اسئلة كثيرة في هذا المجال. من هي الدولة السبابة في ذلك والتي ستدخل لتاريخ الطب الوبائي من باب واسع؟ وهل يكون هناك إقبال على هذا اللقاح من طرف الإنسان؟ وكيف تساهم مناعة القطيع في نجاح هذه العملية الاختبارية دون مخاطر؟ وماهي الآثار الجانبية لذلك؟ وهل ثمة امكانية عودة المرض من جديد وكيف يحسن المريض مناعته بعد صراع طويل مع المرض؟ هذه الأسئلة تطرح نفسها بنفسها والمختصون هم من لهم الحق في الإجابة عليها، وعليه فان هذا متوقف على تطور العلم وإمكانيته في إيجاد علاج مضاد لهذا الوباء من اجل انقاذ البشرية من هذا الوباء الفتاك الذي حصد ارواح كثيرة ومازال لحد الساعة.

6. الاصول والمرجعية الفيروسية لكوفيد 19(كورونا):

حقق الإنسان المعاصر انتصارات كبيرة بصعوده إلى الفضاء وتطويره للتكنولوجيا وتحكمه في الاقتصاد، ولكنه همش بقصد أو بغير قصد قطاع حساس وهو الصحة، وهذا ما هو كائن في الدول النامية فانتشرت أمراض خطيرة كالسرطان والايديز، وأهمل أيضا الجانب

الايكولوجي (البيئة) التي انعكست على صحته سلبا بسبب التلوث والاحتباس الحراري، فظهرت الأوبئة بكثرة، والتلوث البيئي ساهم في ظهور الاختلال البيئي وانعدام التوازن الغذائي السليم أو ما يعرف بالتغذية الصحية، افرز امراضا مستعصية واكثر شراسة وفجأة عندما اغتر هذا الإنسان وحقق اليقين العلمي وانهمك على تطوير مختلف الأسلحة وتدمير البيئة، ظهر فيروس مرعب وقاتل هز كل المفاهيم العلمية المتعلقة باليقين، إنه فيروس كورونا والتي ترجع بداياته الأولى إلى شخص كان قادم من هونج هكونج في عام 2003 بالضبط في 26 فبراير: «... لمعاناته من اعراض تنفسية تشبه اعراض الانفلونزا التي كانت قد بدأت قبل ذلك بثلاثة ايام... وفي خلال ايام مرض ثلاثة اشخاص آخرون وكانوا يعانون من الاعراض نفسها» (رودو لفو ساراتشي، 2015، 12)

هنا ندرك مدى خطورة المرض بصفته معدي ومميت، ولكنه مجهول السبب والصنف، الملاحظة الوحيدة هي العدوى وأعراضه تشبه الانفلونزا كالحمى والسعال وضيق التنفس وانتشر في شرق آسيا، فسارع المختصون في البحث عن سبب: «المرض واكتشاف الكيفية التي انتشر بها والعامل المسبب للمرض الذي كان في اغلب الظن ميكروبا واستغرق الأمر أربعة أشهر حتى تم تحديد العامل المسبب للمرض الجديد، الذي كان واحدا من فيروسات عائلة كورونا الفيروسية الذي انتقل ليصيب الإنسان آتيا من الحيوانات البرية الصغيرة التي يجري تداولها وتناولها كطعام في مقاطعة جوا نجد ونج الصينية» (رودو لفو ساراتشي، 2015، 14)

ليس لدينا معطيات كثيرة لتحليل ما لدينا، ولذلك سنقتصر على وجهة نظرنا أن البدايات الأولى للفيروس كانت نتيجة تناول الحيوانات البرية خصوصا في الصين وهي التي يشك في انها نقلت العدوى إلى الإنسان ولكنها مجرد فرضية، وهكذا انتشر في مختلف بقاع العالم: «وبحلول يوليو عام 2003 تم وقف الانتشار العالي للفيروس، الذي كان يحدث في الاساس عبر المسافرين بالطائرات المصابين بالعدوى وتوقف تفشي المرض الجديد الذي اطلق عليه اسم سارس وهو اختصار لعبارة بالإنجليزية تعني المتلازمة التنفسية الحادة الشديدة» (رودو لفو ساراتشي، 2015، 14)

فلولا الجهود المبذولة وتطبيق سياسة العزل والحجر الصحي لما تم السيطرة على الفيروس الذي خلف حسب الاحصائيات الواردة في الكتاب: «عند رقم يقترب من 8000 حالة مرضية و 800 وفاة» (رودو لفو ساراتشي، 2015، 14) ولكن ما خلفه فيروس كوفيد 19 في حصد للأرواح يمثل أكثر خطورة من بداياته الاولى والقضية هنا تعني الجميع، وقد يمثل إشارة للإنسان بأنه طغى في الأرض ودمر القيم، عندما بدأ يطور الفيروسات واخترع ما يعرف بالحرب البيولوجية، فيصبح الأمر مثل الطاعون الذي ذكره البير كامو في روايته الشهيرة: «إن قصيدة الطاعون لا تمون ولا تحتفي قط، وانها تستطيع ان تظل عشرات السنوات نائمة في الاثاث والملابس وانها تترقب بصبر في الغرف والاقمشة و المحافظ والمناديل والاوراق التي لا حاجة لها وان يوما قد يأتي يوقظ فيه الطاعون جردانه، مصيبة للناس وتعليما لهم...» (البير كامو، 1981، 302)

ان عالم الفيروسات عالم متكاثر معدي يسقط في اي لحظة بشكل عدائي، ولعل هذا ما يميزه عن البكتيريا: «إن العديد من الفيروسات مثل الفيروسات الرغالية تعدي الإنسان دون ان يظهر انها تسبب اعراضا مرضية من جهة اخرى فان بعض الفيروسات تتخذ دورات معقدة من التنسخ مروراً من موقع تنسخ لدى الحشرة إلى دورة معدية لدى الإنسان» (جان نيكولا تورنييه، 2009، 96) ومن المعروف ان الفيروسات غالبا ما تنتقل من الحيوانات إلى الإنسان وقد تتطور وتكون أكثر انتشارا عندما تتطور جيناتها وبهذا تشكل خطرا على الإنسان، وهو ما ينطبق على كوفيد 19 كونه مجهول الهوية، كما يرى أكثر الباحثين في مجال الأمراض المعدية: «إن الفيروسات المنقولة بالمفصليات تنتقل إلى الإنسان عبر البعوض وبالعكس فانها لا تستطيع البقاء الا بتلك القدرة المزدوجة في نقل العدوى إلى خلايا الحشرات والثدييات» (جان نيكولا تورنييه، 2009، 96)

التتبع الكرونولوجي لظهور الفيروسات يؤكد أن ظهورها، خصوصا التاجية منها قديم النشأة: «كانت بداية اكتشاف الفيروسات التاجية في 1965 الذي وجد عند طفل مصاب بالرشح وسمي ب 229E، ثم بعد ذلك بقليل حدد macintosh فيروس قريب من

هذا الأخير سماه OC43، وفي عام 1967 أعطى اسم كورونا فيروس لهذه المجموعة من الفيروسات التي تتركب اساسا من RAN وتكون على شكل تاج تمتاز بتحولها «MUTATION» (Didir raoult, 2020, 53-54)

ولا تزال سلسلة الفيروسات تظهر منذ مطلع القرن الواحد والعشرين، وبالتالي فهي ليست جديدة على الإنسان، وانما لها تاريخ يؤكد ذلك، فمثلا من بين الفيروسات التي ظهرت من عائلة واحدة من حيث الإنتماء ومختلفة من حيث السلالة: «» في سنة 2003 ظهر فيروس كورونا السارس saras الذي تسبب في وفاة 880 شخص ثم اختفى تلقائيا ولم يظهر بعد ذلك وفي 2004 ظهر نوعين من الفيروسات التاجية HK41 و nl63، وفي 2012 في العربية السعودية ظهر MCRS corona وفي نهاية 2019 ظهر فيروس كورونا المستجد المعروف بـ covid 19» (Didir raoult, 2020, 53-54)

وهنا تبقى الحقيقة مجهولة لهذا الفيروس (كوفيد-19) والأمر متوقف على منظمة الصحة العالمية في كيفية التعامل معه وطرق العلاج منه، لأنه فيروس حديث النشأة: «» ويمكننا تسميته بسارس 2 وهو وباء معدي ظهر في ووهان في الصين، وهناك حالات معتبرة في شنغاي وهذا نتيجة الأسواق غير المنظمة فهي أصل الوباء ونقطة أصلية في ذلك» (Didir raoult, 2020, 07)

نزلت جائحة كورونا كالكابوس، فجأة أدخلت بالنظام العام وارتكت العالم بأسره، إذ قدمت للإنسان المعاصر درسا بيوتيقيا مفاده ان الأوبئة لم تكن مجرد تاريخ بل هي حقيقة يعيشها الإنسان الحداثي الذي طور التكنولوجيا والسلاح وتغافل عن الطب الوبائي، فالسلاح فذاك يدمر البشرية أما فيروس كورونا فهو سلاح من نوع آخر خارج عن ارادة البشر، وهنا تظهر مواطن الضعف لدى الإنسان وبالتالي اهتزت اليقينيات العلمية الموجودة، غير أن فلسفة الحضارة تعطي وجهها ايجابيا لهذا الفيروس، إذ أن لكل عملية تدمير بناء، وعليه فهي فرصة سانحة للمجتمعات أن تطور الطب الوبائي وأن تعطي قيمة للإنسان الذي تاه بين هوس التكنولوجيا وعقدة التفوق العالمي.

7. خاتمة :

تشكل جائحة كورونا نقطة تحول هامة في العالم باعتبارها دقت ناقوس الخطر على الإنسان وما وصل اليه من تطور، ففي تاريخ الأوبئة الذي مازال يعاني من نقائص كبيرة، وفي الأخير يمكن القول أن تاريخ الأوبئة هو حقيقة ينبغي التعامل معها بحذر لأنها ترتبط بالطب العملي، كما لا ينبغي أن لا نحدث تلك الهوة بين تاريخ الأوبئة قديما وحديثا باعتبارها تخضع لقواسم مشتركة من حيث طرق العدوى وطرق الوقاية، كما لا ننسى دور الدراسات الايستيمولوجية في ذلك، حتى نحقق نجاحا تاريخيا في مكافحة الأوبئة وبروتوكولات العلاج ونتغلب على مختلف الأمراض، وفي الأخير يمكننا القول ان فيروس كورونا المستجد أو المعروف بكوفيد-19 هو فيروس كباقي الفيروسات التي عرفها الإنسان منذ القدم، ولكنه يمتلك ميزات تجعله يختلف عنها ويكون أشد خطورة باعتباره خاضع لتطور جيني يساعده على الانتشار خصوصا الفيروسات التاجية.

يمثل هذا المقال جزء بسيط من تاريخ الأوبئة التي ظهرت على مر الزمن، ولا تزال الدراسات مفتوحة في هذا المجال، خصوصا ما تعلق بفيروس كورونا لانعدام المعطيات العلمية لذلك، ويبقى هذا المقال يحتاج إلى معطيات علمية أكثر تضفي عليه المصداقية، ويبقى المجال كذلك للفلسفة من خلال الدور الذي تلعبه في نشر الوعي بين الأشخاص، وكذا الانتقادات التي تقدمها والتي من شأنها تطوير الدراسات والأبحاث، وأخيرا فإن القضاء التام على هذه الجائحة هي مسؤولية الجميع حكاما ومحكومين.

8. قائمة المراجع:

1. ابراهيم يوسف النجار، 2013، مدخل الى الفلسفة، ط2، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي
2. البير كامو، 1981، الطاعون تق سهيل ادريس، ط 1، بيروت لبنان، دار الآداب
3. جان نيكولا تور نبيه، 2009، الكائن الحي مفككا ترميزه اي مفهوم جديد تعطى للحياة، تر هالة صلاح الدين لولو، ط01، بيروت لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية
4. رنيه تاتون، 1993، تاريخ العلوم العام العلم الحديث مجد 02 من سنة 1450، 1800 ترعلي مقلد، ط2، بيروت لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
5. رودو لفو ساراتشي، 2015، علم الأوبئة مقدمة صغيرة جدا تر أسامة فاروق حسين مر مصطفى محمد فؤاد، ط1، القاهرة مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
6. رنيه مونييه، 1966، البحث عن الحقيقة وجوهها، اشكالها علاقتها بالحرية تر هاشم الحسيني، (دط)، بيروت لبنان، منشورات دار مكتبة جنان
7. شلدون واتس، 2010، الأوبئة والتاريخ المرض والقوة المبريالية تر وتق احمد محمود عبد الجواد مر عماد صبحي، ط1، القاهرة مصر، المركز القومي للترجمة
8. ALLAIN BADIOU, 27 mars 2020, sur la situation épidémique, Paris France, édition Gallimard
9. DIDIR RAOULT, 2020, épidémies vrais dangers et fausses alertes de la grippe aviaire au covid -19, Neuilly-sur-Seine France, édition michel lafon ,